# ندوة
# "التعليم في مواجهة قصف الكلمات والاختراق اللغوي"

د. منير فاشه

"التعليم في مواجهة قصف الكلمات والاختراق اللغوي" عنوان ندوة حوارية نظمها مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، تحدث فيها الدكتور منير فاشه، أستاذ زائر، ومدير "الملتقى التربوي العربي"، وعقدت في السادس من آذار 2006 في مقر الإغاثة الزراعية برام الله، ومقر شبكة المنظمات الأهلية بمدينة غزة عبر تقنية الفيديوكونفرنس.

الندوة دارت حول القصف بالكلمات وخطورته، فكما يرى د. فاشه "أننا كفلسطينيين خبرنا كل أنواع القصف: الطائرات، الدبابات. ولكن، كما يظهر، كنا أقل وعياً لقصف من نوع آخر، لعله أعمق أثراً وأكثر ضرراً، ألا وهو قصفنا بكلمات لا جذور لها في حياتنا".

وخطورة القصف بالكلمات -كما يرى فاشه- تكمن في أنها تأتي مغلفة بنيّات تبدو حسنة وأهداف تبدو نبيلة، ولكنها في الواقع بمثابة مخدّر، بل هي نوع من الاستعمار الذهني والإدراكي والاجتماعي، بمعنى أنها تقتل المناعة الداخلية على هذه المستويات. وتكمن خطورة هذه الكلمات في أنها تحجب عنا رؤية الواقع، وتلغي قيمة ما لدينا، وتفتتنا من الداخل، وتمزق النسيج المجتمعي. ويشكل الإعلام والتعليم المجالين الرئيسيين اللذين يتم من خلالهما القصف بالكلمات.

لقد تصدت الندوة لمناقشة الممكن الذي من خلاله تتمكن التربية من أن تولي عناية خاصة باللغة لتمكينها من أن تلعب دوراً مختلفاً جداً، دور بناء على المستوى الفكري والإدراكي والاجتماعي والروحي والعاطفي. ولعب هذا الدور مرتبط بشرطين: انطلاق التعليم من القيم التي يعيش الشخص بموجبها، استعادة حقه ومسؤوليته في البحث المستقل عن المعاني والمعايير والمشاركة في تكوينها. وهذا الأمران غائبان عن الفعل التربوي الرسمي. ولذلك، فالمشاركة في تكوين المعاني والمعايير وخلق حوار حول القيم أمران مهمان جداً في استعادة التربية والمعرفة حيويتهما وجوهريهما وجدواهما.

مجريات الندوة وما دار فيها من مداخلات ونقاشات سجلته **رؤى تربوية** في ملف كامل، لتضعه بين أيدي التربويين والمعلمين، آملة أن يشكل خطوة على طريق فتح حوار مجتمعي حول هذه القضايا ومدى مساسها ببنيتنا الثقافية والمجتمعية، وفيما يلي ما تضمنته الندوة:

**وسيم الكردي:**
مساء الخير، دعونا في البداية باسمي وباسم مركز القطان للبحث والتطوير التربوي أن نرحب بكم، وانتهز الفرصة من أجل الترحيب بمنير على الرغم من أنه من رام الله، ولكنه منذ فترة طويلة وهو بعيد قريب من رام الله، واقتنصنا الفرصة هذه المرة لعقد لقاء معه، وبخاصة أنه على الرغم من التجربة الطويلة والمباشرة مع منير، وعلى أهمية الموضوعات التي عمل عليها تاريخياً، ابتداء من بيرزيت حتى الملتقى التربوي العربي، ثمة مواقف له تبدو للوهلة الأولى متطرفة قياساً بالوضعية السائدة، وبالتالي فنحن بحاجة لإعادة مناقشتها وحوارها ومساءلتها وتبريرها. وفي اعتقادي أن لقاء اليوم هو امتداد لسلسلة لقاءات داخلية بيننا وبين منير عبر الكتابة والحوار؛ سواء أكان في رام الله أم في مواقع أخرى، تلك اللقاءات التي نحب أن نسميها خلوات ومحاورات، فعندما تسمعون التعبيرات من منير ستأخذ معاني ودلالات أخرى غير تلك المعاني والدلالات التي اعتدنا

عليها. واحدة من القضايا التي كانت مثار اهتمام لنا ولمنير، ولكن في سياقات مختلفة في بعض الجوانب ومتفقة في جوانب أخرى، أن اللغة تختلف عن الكلام، فإذا كانت اللغة هي ما نذهب إليه ونستعير منه، فإن الكلام هو فعل شخصي، وبالتالي قد يكون الكلام كلاماً محملاً ومعبأً بمعان ودلالات مرتبطة بسياقات الثقافة والتاريخ والمجتمع، وبالتالي ليس هناك ألفاظ بريئة، وكل التعبيرات ملوثة، والعنوان الصارخ الذي اختاره منير لهذه الندوة هو قصف الكلمات، كاستعارة تشبه قصف الدبابات، وهو ما يأتي أيضا ضمن السياق نفسه، وبالتالي فكل ما نسمعه من مفردات وتعابير هي ليست مجرد كلمات لتوصيل رسائل محايدة، وإنما تحمل أيضاً هوية من يقولها، وتحمل كماً هائلاً من الدلالات والمعاني التي تختفي وراءها.

ما نفعله اليوم هو محاولة لفتح الحوار بشكل أوسع فيما يخص هذه القضية، والتعامل النقدي مع موضوع الألفاظ وموضوع الكلمات، وبخاصة أن هناك كماً هائلاً من التعابير والمصطلحات التي يبدو أننا نستعملها بطريقة غير واعية، لكنها تحمل معاني ودلالات يتم استدخالها أيضاً بطريقة واعية أحياناً، وبطريقة غير واعية أحياناً أخرى، لن أطيل عليكم وسأترك المجال لمنير للحديث، وبعد ذلك سنفتح الحوار هنا، وفي غزة أيضاً. شكراً لكم وشكراً لوجودكم، فالحضور اليوم يبعث على التفاؤل بندوات شهرية مستقبلاً.

**د. فاشه:**
أنا أيضاً أشعر بسعادة كبيرة عندما آتي إلى رام الله وأرى الأصدقاء وأحادثهم، واليوم أنا في غاية السعادة لأني التقي بكم، وبخاصة مع الحضور في غزة، وإن كان عبر وسيلة "النقل المتلفز"، فأنا حاولت الوصول إلى غزة بأي طريقة ولم أنجح، وكم أتمنى أن أصلها قبل أن أغادر.

لديَّ تعليق على كلمة واحدة ذكرها وسيم وهي وصف بعض مواقفي بالمتطرفة. أنا أرى أن وضع العالم في شكله الراهن هو المتطرف، بمعنى أنه على طرف الحياة، أنا أحاول أن أكون في الوسط، التطرف هو عندما تكون الكلمات غير مستمدة من حياة الناس، وكلماتنا معظمها غير مستمدة من حياة الناس، أو بشكل أدق معانيها غير مستمدة من حياة الناس، قد تكون الكلمات نفسها مستمدة من حياة الناس، لكن معانيها أفسدت وتلوثت.

أريد أن أبدأ بالصورة التي عندما رأيتها أوقفتني لغرابتها من ناحية، ولأنها تعبر كثيراً عن الوضع العالمي المعولم، الذي تكوَّن في 300 سنة الأخيرة، وفي هذه الصورة تظهر امرأة تبتسم، وهي رئيسة تحرير لمجلة أميركية مشهورة. ما استحوذ على اهتمامي هنا هو الوصف المكتوب في أسفل الصورة، الذي تضمن تعريفاً لهذه السيدة واسمها، وعملها، واسم مصمم الملابس، واسم مصمم الشعر، وأخيراً وهذا ما أثار اهتمامي هو أن ابتسامة هذه السيدة صممها د. أرك أرياس، ما يعني أن الابتسامة مصممة، مرتبة، كيف حدث ذلك؟! إنسانة بعد 50 سنة من عمرها يقنعها شخص أنها خلال الخمسين سنة الماضية لم تكن تعرف كيف تبتسم، بما أنه خبير سيعلمها كيف تبتسم.

هكذا أصبح العالم: ادفعي لي مبلغاً من المال قدره 10000 دولار وأعلمك كيفية الابتسامة، وأهندس لك ابتسامتك وأرتبها! كيف يمكن أن يخدع العقل بهذه السهولة؟ لا أعلم بالضبط، غير أن التفسير الوحيد لدي هو أن أسهل طريقة لخداع العقل هي الكلمات.

ما قلته أن الشيء الأكيد الذي تعوَّد عليه الشخص هو أن يرى ابتسامة خارجة من القلب، ومنذ القدم والابتسامة تخرج من القلب، لكنها في الوقت الحاضر لم تعد تخرج من القلب، وصار لا بد من رجل خبير يصمم لك الابتسامة ضمن مقياس لتخرج بشكلها الصحيح، هذا ما حصل في 300 سنة الأخيرة.

وكانت البداية من العقل، فقبل 500 سنة بالضبط وجد شخص اسمه "نبريها" في أسبانيا في السنة نفسها التي ذهب فيها كولومبس إلى إيزابيلا، وقال لها أريد أن أساعدك في اكتشاف أرض بعيدة والسيطرة عليها. ترددت إيزابيلا في البداية، ولكنها في النهاية وافقت وبعثت كولومبس. وبعد ذلك حضر شخص آخر أخطر كثيراً من كَولومبس يحمل مشروعاً آخر للسيطرة على البشرية، وقال لإيزابيلا: لا يمكنك السيطرة على الأراضي البعيدة قبل أن تسيطري على شعبك، على الناس الذين تحت حكمك. فسألته كيف يكون ذلك؟ وما هو اقتراحك للسيطرة على الناس؟ قال: أنا في 25 سنة ألفت كتابين: الأول عبارة عن قاموس، والثاني عبارة عن قواعد نحوية؛ فقد ركبت لغة واحدة لتحل محل كل اللغات الموجودة في أسبانيا. فقالت له: هل تريد أن يتكلم جميع الناس اللغة نفسها، بالمعاني نفسها وأحاسبهم على عدم فعل ذلك؟ فرفضت فكرته وطردته. وبعد 150 سنة من هذا الحديث، احتضنت فرنسا أفكاره، حيث كانت على أبواب بناء دولة قومية (Nation State) مثلنا الآن، وكانوا في الجنوب، وبخاصة سواحل البحر المتوسط، يتكلمون لغات عديدة، ولم تكن هناك طريقة للسيطرة على هؤلاء الأشخاص إلا إذا فرضوا عليهم لغة واحدة هي اللهجة الباريسية، وكيف يمكنهم فرض هذه اللهجة طبعاً؟ ليس ثمة طريقة لفرض ذلك إلا طريقة واحدة هي ما نسميه اليوم التعليم الرسمي أو التعليم النظامي.

فكانت فرنسا أول بلد تبنّت فكرة نبريها، وطبقتها من حيث توحيد الكلمات التي تستعمل في المدرسة لمدة 12 سنة، أي أن كل أطفال البلد يتعرضون لمدة 12 سنة للكلمات نفسها والمعاني نفسها، وهذه كانت بداية بذور التعليم الرسمي والتعليم النظامي، وها نحن نركض وراءه

جميعاً وكأنه المنقذ.

الابتسامة جزء بسيط من القصة، فما حصل قبل 350 سنة كان شبيهاً كثيراً بموضوع الابتسامة. فإيزابيلا عندما رفضت تبني المشروع كانت تستشعر بخطورة هذا الطرح على البشرية وثقافاتها. في الوقت الحالي لو حضر شخص، مثلاً في رام الله، وقال أستطيع أن أصمم ابتساماتكم، فمن المؤكد أن الناس سيرفضون ذلك. وعندما رأيت صورة المجلة الأميركية، ذهبت بعدها إلى باكستان، وهناك لفت نظري جمال الملابس النسائية وألوانها، التي لا يمكن لباريس أن تنتج مثل هذا الجمال وابتساماتهم كذلك إلا بعد 30 سنة على الأقل. فقلت لهم: ما هو رأيكم أن تعملوا وكالة لتنمية الابتسامات، وتصبحون مثل الغرب تنتجون خبراء في ذلك، خبراء يقيمون أسبوعين عند الألمان أو الانجليز أو الأمريكان ويعلمونهم كيفية الابتسامة، ويعلمونهم ليس بطريقتهم بل من خلال الابتسامة أمامهم، لأن فينا وفي مجتمعاتنا جمالاً حقيقياً، وكذلك في ثقافتنا التي نبددها عبر توحيد اللغة.

أريد أن أركز الآن على أمر: في العام 1492 حصلت جريمتان أو ظهرت بذور لجريمتين، الأولى: القضاء على شعوب ثلاث قارات بالكامل وحضاراتهم وغزو اثنتين واحتلالهما ونهب خيراتهما. والثانية حصلت في السنة نفسها، حيث ذهب شخصان للملكة نفسها وإلى المكان نفسه، وحدد هدفه في احتلال أراض، والآخر في احتلال العقول. أرى أن هذين الحدثين اللذين حصلا في السنة نفسها يكمل كل منهما الآخر، والحديث الذي حصل في السنة نفسها يكمل بعضه بعضاً، وطبعاً بعد ذلك كانت الثورة الصناعية، والأسواق، والحدود، والدول القومية، وكل هذه الأشياء أوجدت هذين الاحتلالين ورسختهما. في هذا الوقت، الاحتلال الذي أتحدث عنه اليوم، طبعاً نحن نعرفه فهو احتلال الأرض، ونعاني منه، ولكن بموازاة احتلال الأرض كان هناك احتلال للعقل، واحتلال العقل جاء عن طريق التعليم، وهنا أريد أن أقول للذي يتحدث عن تحسين التعليم مثل الذي يتحدث عن تحسين السجون، وأي شخص يحسّن السجون أو التعليم سيكون أمراً رائعاً، ولكن لو وضعنا كل جهدنا في هذا المجال لن نتعلم، وسنبقى نجتر كلمات وأفكاراً ومعاني جاهزة. ومثل ما نستهلك الكولا، والملابس، والطعام . . . الخ، نستهلك الكلمات والمعاني، دعني اختار كلمة التنمية في البداية، فقد تحدثت عن التعليم ككلمة أقحمت، نحن لحسن الحظ في اللغة العربية لا يوجد عندنا كلمة مرادفه لـ (Education).

يوجد في اللغة الإنجليزية (Teaching)، و(Learning)، و(Education)، واللغة العربية يوجد بها تعليم (تدريس)، وهو يقابل (Teaching)، وتعلّم الذي يقابل (Learning)، أما (Education) فهو مفهوم غريب مسقط، أسقطه وقتها "نبريها"، فقبل سنة 1492 لم تكن لهذه الكلمة أي وجود، وبعدها بدأوا يستعملونها، ولكن كلمة (Education) هي كلمة حديثة جداً، وليس لها جذور، أما (Teaching) و(Learning) فتعنيان تعليم وتعلم، أي منذ أن كان الناس يتعلمون من بعضهم، ومع بعضهم البعض، وكل يتعلم من خبرته في الحياة، فالتعلم شيء يقره الجميع، والتعليم يحدث أثناء تعاملنا مع الآخرين، يتعلم منهم ويعلمهم، أما (Education)، فليس لها عندنا أي معنى، ولكن عندما سمع بها العرب بدأوا بالبحث لها عن معنى، ولم يستطيعوا إن يجدوه، وهذا من حسن حظنا.

كلمة (Education) التي سميناها تعليماً رسمياً أو تعليماً نظامياً أو حتى التعليم غير النظامي وغير الرسمي، وكله من العائلة نفسها مبني على أساس البدء بكلمات ومفاهيم. يدرس الشخص النظرية والمعادلة، وفي النهاية يضع لها التطبيقات، والتطبيقات هزيلة، يخجل الشخص من التحدث عنها، ولا يتم الحديث عنها إلا في الكتب، ويمتحن الناس فيها، ونمتحن جيلاً كاملاً بناء على معايير ثابتة.

التعليم الرسمي يعني وجود منهاج يضعه خبراء، وهؤلاء الخبراء يحددون كل ناحية في هذا المنهاج، ويصبح المعلم بائعاً، أي أن فكرة التعليم تربط بفكرة الاستهلاك، وتصبح هناك بضاعة يجب أن تباع اسمها منهاج، وهناك بائع ومشترٍ، وهناك فرق في البيع والشراء بالنسبة للاقتصاد وللتعليم، ففي الاقتصاد لا يكون الفرد مرغماً على الشراء، أما في التعليم فأنت ملزم أن تشتري رغم إرادتك، وإذا لم تشترِ هذه البضاعة التي نحن نضعها لأولادك تصبح خارجاً على القانون . . . شيء غريب! في فلسطين هناك أكثر من مئة ألف طالب يجلسون لتقدَيم الامتحان نفسه، أي المقياس نفسه، ولا أحد منا يرى أن في هذا أي مشكلة، أي أن أضع ملابس لها القياس نفسه، وأقول يجب على كل الناس أن يلبسوا اللباس نفسه، أليس هذا ضحكاً على عقول الناس؟ لكن عندما يقال إن العقل يخضع للمقياس نفسه، والطعام نفسه لكل عقل بعمر معين، فإننا نهجم على هذه الفكرة ونحتضنها، كيف حصل هذا؟ كان بداية ذلك في فلسطين سنة 1929 عندما بدأ الانجليز بفرض كتبهم ومناهجهم. الوحيدون الذين لاحظوا أن هناك خللاً هم الفلاحون، ولهذا السبب عقدوا مؤتمراً سنة 1929 في يافا، وكان سؤالهم أن هذا الذي نتعلمه في المدارس ليس له علاقة بحياتنا بتاتاً، ولكن من هب للدفاع عن الإنجليز هم المتعلمون الفلسطينيون الذين ذهبوا إلى أكسفورد وكامبردج، ودرسوا المترك الإنجليزي، وقالوا أن هؤلاء (الفلاحين) يريدون أن يبقوا متخلفين، أي أن كل من لا ينسجم مع هذه الطريق يصبح متخلفاً، بالضبط مثل هذه الأيام، كل من لا يتفق مع رغبة أمريكا وإسرائيل يصبح إرهابياً . . . إنه المنطق ذاته. وفي النهاية انتصر هذا الفيضان، الكتب، والكلمات، والمقاييس، والمنهاج . . . الخ.

ولكن، كانت هناك مقاومة، خليل السكاكيني بطريقته الصادقة في التعليم كان يختلف جذرياً عن هذه الأشياء. ولكنه وحده لا يستطيع أن يوقف هذا العدوان، فخليل السكاكيني مثلاً لا يؤمن بالعلامات، ويقول إنه عندما يأخذ طالب 90% في اللغة العربية فماذا يفيده ذلك؟ أو عندما يبدع طالب في كتابة شيء أو في استعمال اللغة، وربما يستعمل طالبان اللغة بطريقتين مختلفتين جداً، ولا أستطيع أن أقرر أو أفاضل بينهما، فقضية

المقارنة رغم إرادتنا تقرر أن هذه 90 أو 91 بشكل مطلق أفضل، وهذا ما نشهده في الجامعات، فإذا حصل طالب ما على هذا المعدل يدخل هندسة، وإذا كان معدله أقل بعلامة فيا سبحان الله لا يستطيع دخول كلية الهندسة، ولكنه إذا دفع نقوداً أكثر، في ما يسمى بالتعليم الموازي، يصبح هذا الطالب فهيماً وذكياً.

نحن نُخدع ونمشي في طريق خطرة جداً، وأرى أن هناك كلمة أخطر من كلمة التعليم الرسمي، فمن ناحية التعليم هناك معارضة، لكن هناك كلمة ليس لها معارضة تقريباً وهي كلمة تنمية، فهذه الكلمة هي سبب الدمار، وأنا أخاف ألا نستطيع نزع هذه الكلمة. مصطلح التنمية مثل (Education) لها تاريخ. أعلن مصطلح التنمية سنة 1949 في خطاب الرئيس ترومان خلال تسلمه للرئاسة، وكان العالم مدمراً نتيجة تنميتهم وعلمهم وكرههم. وحتى يجعل العالم ينسى هذه الويلات وهذه الجرائم، طرح مصطلح التنمية، فقال: إن المشكلة في العالم أن ثلاثة أرباعه غير نامية، ومهمتنا مساعدة ذلك العالم، لاحظوا كلمة المساعدة دائماً، الغرب يحتل البلاد تحت كلمة المساعدة أو التنظيم أو التطوير أو التمكين، وكل هذه الكلمات تمثل، ودائماً، جزءاً من الهجمة، ودائماً يضربون الناس ويقتلونهم في أفغانستان والعراق حتى يعلموهم الديمقراطية ويحرروهم، وتمر هذه الخدعة على معظم العالم، أو بالتحديد على الحكومات، أما الشعوب فلا، وهذه هي دائماً الفجوة بين الحكومات والشعوب، أي أن الحكومات منذ 350 عاماً تقبل بوجود دولة القومية، ووجود دولة القومية يحد من حركة الناس، وكان هذا دورها حتى تتمكن من ضبط السوق وفرض السيطرة على الشعوب.

أما بخصوص التنمية فإنها تعطينا مثالاً جيداً على كلمات تستعمل بطريقة تسيطر على الناس. التنمية كانت موجودة قبل ترومان، ما فعله ترومان هو جعل الكلمة مهنية، أي لا يمكن لشخص عادي أن يتحدث عنها، فالناس درجات، تجد شخصاً يفهم في التنمية، وهناك شخص يفهم أكثر منه . . . وهكذا، وبعد ذلك هذا يدرب هذا، وهذا يدرب هذا، وذاك يدرب مدربين، وخبير يدرب مدرب المدربين، ويدربون شباباً ليدربوا شباباً آخرين والحلقة تستمر. والفكرة الأساسية من كل ما ذكر تقوم على فكرة التعليم الرسمي، ونحن لم نبتعد عنها، كل ما هنالك أننا استعملنا كلمات جديدة لنقول: والله الجماعة غيروا وبعد ذلك ماذا عملوا؟

في البداية، كانت خطط التنمية تنفذ عن طريق الحكومات، ثم أدركت تلك الحكومات أنه من الأفضل أن يتم تنفيذها عن طريق حركات شعبية كما أن الناس يتقبلونها بشكل أفضل، بعد ذلك سُلمت لأشخاص وسموها منظمات أهلية غير حكومية، ولكن يجب أن تحصل على ترخيص من الحكومة، وحتى الأجهزة الحكومية هي أقل حكومية من المنظمات غير الحكومية!

وأيضاً جزء من الكلمات التي تقحم علينا ويقصد بها منظمات غير حكومية يا سلام! حلوة! وبعد ذلك نرى أن القائمين على هذه المنظمات أصدقاؤنا، ونحن نعرفهم، وأنا هنا أتحدث عن أشياء عشتها ومررت بها أثناء عملي في التعليم، وأعتقد أن المرة الأولى التي حدث فيها هذا الأمر كانت في أمر اسميه حالياً أشمل من التعليم، وكان في بداية السبعينيات، والسبب الرئيسي الذي ساعدني في أن أرى المرض وأبدأ بالشفاء منه هو وضع فلسطين، أي أننا كنا في السبعينيات في رام الله، وبدأنا نعمل أشياء كثيرة، وكانت البلد حيوية بشكل غريب، فكان كثير من المجموعات والشباب يعملون دون استقدام خبراء، أو ترخيص أو تسجيل، كل الناس يعملون دون أمراض التسجيل والتمويل وما إلى ذلك من الأشياء الموجودة في الوقت الحالي، ولكن الذي حصل أن هذه الظاهرة الجيدة يجب السيطرة عليها أيضاً، والسيطرة عليها يكون بالطريقة نفسها، دعونا نطلق عليها كلمات وأسماء ولائحات، وليس هكذا فقط، بل نحن نعطيهم الكلمات حتى يقوموا ببيعها، وليس نحن من نبيعهم إياها، تجد أحياناً منظمة أهلية تخرج لغرض معين، وهو بيع الكلمة، وهذه الكلمة يمكن أن تكون "ديمقراطية" أو "حقوق إنسان" أو أي شيء أنت تريده، كل شيء ما عدا المعرفة الموجودة عند الناس، الأشياء الموجودة عند الناس أو الأشياء التي يستطيع أن يعملها الناس لا نريدها، هل تعرفوا إنساناً لا يستطيع التفكير، كل الناس يستطيعون التفكير، الآن يبيعوننا طرائق التفكير.

تخيلوا شخصاً عمره 30 سنة، يقال له ادفع لنا 800 دولار نعلمك كيف تستطيع أن تفكر، ولو ألقيتم نظرة على برنامجهم لوجدتموه بالضبط مثل هذه الابتسامة، تفكير آلي وابتسامة آلية، والتفكير الذي يعلمونه يسمونه تعليم التفكير، عندما يولد الإنسان يكون عنده القدرة على أن يتنفس ويتعلم ويفكر، يولد ولديه الاستعداد ليكون منطقياً. أحد الأشياء الذي اختلفت فيه مع معلمي الرياضيات في السبعينيات عندما عملت معهم وكنت أقول إنه لا يوجد طفل غير منطقي، كل طفل منطقي، كل إنسان منطقي، كان المعلمون يقولون أنت لو ترى طلابنا، لا يوجد لديهم شيء من المنطق، أقول: كيف وهو عاش 12 سنة، وقد كوَّن منطقاً أختلف معه، لكنه في النهاية منطق.

هذا لا يعني أنه غير منطقي، تصور دور معلم يبيع نوعاً واحداً من المنطق، وهو منطق آلي أصلاً، أي أن هناك ثلاثة قوانين إذا كنت تعرفها فهذا يعني أنك إنسان منطقي. المعلم منذ القدم يجسد الذي يعلمه، والمعلم كان يعلّم الصدق ليس عن طريق منهج رسمي، ولا عن طريق كتاب، كان صادقاً فيعلم الأطفال الصدق؛ المعلم الذي يتميز برحابة الصدر ورحابة عقل لا يقول للأطفال يجب أن تكونوا متسامحين، ولكنه يفعل ذلك عن طريق تجسيده لهذا الكلام في فعله وممارسته، والشيء نفسه في الرياضيات والعلوم. أذكر قبل أربع أو خمس سنوات حضرت إلى هنا، وقد دعوني إلى مدرسة المستقبل، وتحدثت مع معلمي الرياضيات والعلوم، وأخبرتهم عن النوادي في أيام السبعينيات، واحدة من المعلمات قالت كيف سنعلم علوماً وليس لدينا مختبرات، ولا يوجد في المنطقة مصانع؟ قلت لها: هل يوجد في الصف ذباب؟ قالت: نعم. وقلت لها: وهل يوجد في بيوت

الطلاب ذباب؟ قالت! نعم. قلت لها: إذاً علميهم عن الذباب، فلو قام كل طفل بمتابعة الذباب ومشاهدته لمدة شهر، لاحظ وكتب كل مشاهداته عن الذباب، والتقى مع اثنين أو ثلاثة أو أربعة يتحدثون مع بعض عما شاهدوه، وبعد شهر ستكتشفين كم تعلموا، تعلموا علوماً أكثر من 12 سنة. يجب ألا نعتقد أن تعليم العلوم يجب أن يكون في كتاب، ويجب أن يأتي الكتاب من لندن أو أمريكا، السؤال هنا يعيدنا إلى احتلال العقل الذي أعتقد أنه أسوأ من احتلال الأرض، لأنه لا يُرى، وهناك صعوبة في التخلص والتحرر منه. فالأرض مهما طال استعمارها فمن السهل أن تستعيد هويتها، لكن بالنسبة لاحتلال العقل وما نراه يظهر العكس، فكلما زادت الجرعة بين الكلمات التي يمكن أن نسميها لا جذور لها، أو كلمات سامة، أو كلمات بلاستيكية، أو كما تريد أن تسميها، فكلما كانت الجرعة أكبر استسلمنا أكثر وارتحنا أكثر، ويصبح مثل مخدر، أي أن الذي تعود على المخدرات لديه الاستعداد أن يدفع أي شيء من ماله مقابل الحصول عليها. الشيء نفسه يحدث مع هذه الكلمات المخدرة التي نركض جميعاً وراءها، ومن يستطيع أن يحصل على شهادات فيها؛ شهادة أني أستطيع أن أفكر، وشهادة أني أستطيع أن أنمي أمراً ما، وشهادة دكتوراه من جامعة كذا، أي أنه مرّ في امتحان كذا. والشيء نفسه ينطبق على التفكير الذي يعلمونه لنا، فهو لا يخرج من الحياة، بالعكس، هو مكيف بقوالب، وهذه القوالب يبيعونها لنا جاهزة.

قبل مدة قصيرة –ما دام الإخوان والأخوات من غزة معنا– استلمت رسالة أدهشتني من غزة عبر بريدي الإلكتروني من مجموعة اسمها مجموعة التجريب. بعد ذلك تحدثت مع أحدهم هاتفياً. ما تضمنته رسالتهم والروح التي يعملون بها جعلاني أبكي، لأني شعرت بالصدق والحماس وبنوع من المثالية الجميلة المرتبطة بالأرض . . . الخ. لكن على الرغم من كل الأشياء الجميلة، فإنهم عندما اختاروا الكلمة لتلخيص طبيعة عملهم استخدموا "إصلاح ثقافي"، هذا الإصلاح هو أيضاً كلمة جديدة، فهي من الكلمات التي رموها علينا، ومنها إصلاح سياسي، وإصلاح اقتصادي، وإصلاح اجتماعي . . . الخ.

عندما جرت آخر انتخابات في لبنان كنت هناك، ولم يكن شخص أو حزب أو قائمة إلا وقد ضمَّن برنامجه كلمة التنمية أو أحد مشتقاتها. الآن نحن نتغير، ليس بشأن التنمية فقط، بل نضع أيضاً كلمات عن الإصلاح، كيف يريد شخص إصلاح الثقافة، ذلك كأن يقول شخص ما: إن هدفي أن أصلح المياه، وكيف يصلح المياه؟ بتحويلها إلى كولا، ولا توجد طريقة أخرى، أو أسوأ، حيث لا يوجد أسوأ من الكولا. الإصلاح الثقافي، الثقافة أين موجودة، موجودة فينا كلنا، وموجودة بطرق مختلفة، نأخذ مثالاً بسيطاً مثل حكواتي، أو امرأة حكواتية، كيف سنصلحها؟ هل هناك أروع من إنسانة تحكي قصصاً للأطفال، وتشدهم ويتعلمون كثيراً من الأشياء وكثيراً من المجتمع وكثيراً من الحياة بطرق قصصية، وأنا أفضل أن تكون أمية، لأنها إذا كانت غير ذلك ستبدأ بتذكر الكلمات المكتوبة، الأمية دائماً تتجاوب مع الموجودين، وتكون في قصصها حيوية أكثر، فقط يا سبحان الله نحن المتعلمين أيضاً لأننا نعتقد أننا أفضل من الذين لا يستطيعون القراءة والكتابة، بالضبط مثلما يأتي الأجنبي ليعمل على تطويرنا وتحسيننا، أو عندما نذهب لشخص لا يعرف القراءة والكتابة فإننا ننظر إليه أنه أدنى منزلة منا، وأننا أفضل منه، وأنا أريد أن أحسنه وأساعده! المنطق نفسه والفكرة نفسها، عندما تستسلم لهذه الروح أو بشكل أدق لهذا الكابوس أو الروح الشريرة التي هي أننا أفضل بشكل مطلق من شخص آخر، ماذا يعني أنني أفضل منه، لأنني أركب فرساً وهو لا، ولكنه أفضل مني لأنه يركض وأنا لا أستطيع. فقط الأمور لا تسير هكذا، ولكن المتعلم؛ أي الذي يعرف القراءة والكتابة، يعتقد بشكل مطلق أنه الأفضل عن الذي نسميه أميّاً، وكلمة أميّ تقريباً تقترن في ذهننا بكلمة جاهل، وكانت جزءاً من الكلمات التي أقحمت إقحاماً ونقصف بها يومياً ونقذف بها يومياً وفي الوقت نفسه تخدرنا. نعود إلى كلمة إصلاح، أنا أريدكم أن تقرأوا جميعكم ما كتبه هؤلاء الشباب باستثناء كلمة إصلاح، ولاحظوا الروح التي كتبوا بها، فهي جميلة جداً، لكن كلمة إصلاح كلمة هزيلة، لأنه لا يوجد شيء اسمه إصلاح، فالحياة تصلح نفسها بنفسها، ولا تحتاج لشخص يصلحها، إي أنه إذا عشت أنت في جو سليم وصحي، فإن الأمور ستكون صالحة، أما إذا أتيت بشخص ليكتب لك خارطة وتخطيط ومخطط كيف تتصرف، حتى وإن كانت نيته، إلى حد كبير، صافية، فإن الأمور في النهاية لن تتصلح.

في القرن الماضي بالضبط قضي على 1000 لغة، وقبل ذلك كان هناك 5000 لغة، وحسب هذا المعدل يمكن أن نخسر في نهاية القرن الواحد والعشرين 3000 لغة يتوقع أنها ستغيب إذا ما نزعنا أنفسنا من الطريق الموجود الذي يسمى تنمية، وتعليم، وتمكين . . . الخ.

أنا أتحدث عن اللغة ليست كلمات ولا حروف ولا قواعد فقط، أتحدث عن اللغة كطريقة حياة، فكل لغة هي طريقة حياة، فيها علاقات وتعامل وفهم ومعارف، ولا توجد لغة عبارة عن كلمات فقط، ولكن في المدارس تصبح اللغة كلمات فقط. قبل فترة بسيطة لاحظت أن في اللغة العربية شيئاً غير موجود في كل لغات العالم ألا وهو المثنى. في لغات العالم توجد "أنا" وهي لا تعني أي واحد منكم، كما لا تعني "أنا"، هذا المنطق

الموجود في اللغة العربية لا يوجد في أي لغة أخرى، فيها قواعد، وفهم، وأنماط، مثل أنا، وأنت، أو مع بعض، أو نحن الاثنين . . . الخ، أو المثنى، كما تسمونها دائماً، المثنى هو مخلوق ثالث لا يوجد أجمل منه.

كل واحد منا يتكون من عدد كبير من المثنيات، وكل مثنى له حلاوته وجماله ومعناه، وهذا منطق آخر يختلف كلياً عن منطق أرسطو ومنطق هيغل لم يفهماه لسبب بسيط؛ لأن لغاتهما لا يوجد فيها المثنى. قال هيغل إن الاثنين مع بعضهما البعض قد يكوّنا وحدة واحدة، فعندما تسأل الأمريكي يقول (my other half)، أي نصفي الآخر. يقول عن زوجته نصفي الآخر، وهي تقول أيضاً عنه نصفي الآخر، أي أنهما اندمجا وأصبحا واحداً بحسب هيغل. ولكن في اللغة العربية كل واحد له كيانه، وفي الوقت نفسه للاثنين مع بعضهما البعض كيان. هل رأيت أفضل من هذا؟ مدارس المقاصد تعتبر تعلم اللغة الإنجليزية أفضل في التجارة والتنافس العالمي، هل نحن نأكل من التنافس العالمي؟ وكم نستفيد منه؟ وهل كل هذا الجمال وأنا الآن أتحدث عن اللغة العربية بكل جماليتها، وأكيد كل لغة لها جماليتها، عندما نتحدث عن اللغة ونتحدث عن الكلمات، فإنني عندما استبدل كلماتي -كعربي- بكلمات تقصف علينا لأنه يوجد عندنا مؤسسات ومهنيين يريدونها، صفات الكلمة المهنية أولاً إنها لا يستطيع أحد الحديث عنها غير المهنيين، وثانياً يمكن قياسها، قبل التنمية (قبل ترومان) كان الناس يستخدمون التنمية ضمن معان عديدة، ولا يوجد شخص يتحدث لك عن التنميات ويقول لك أنت لا تعرف عن التنمية، أنا أحمل شهادة في التنمية، وكان الكل يستعملها بطرق متعددة وغنية وجميلة، لكن منذ سنة 1949 أصبحت التنمية مثل السرطان، والسرطان موجود في كل العالم، أي حزب من أحزاب لبنان من حزب الله، حتى الكتائب، وكذلك الوسط، كانت التنمية موجودة في برامجها، وجمعها شيء واحد أن التنمية هدفها، وفي الوقت نفسه لم يكن هناك حزب يستطيع بالضبط القول ما هي التنمية، ولكن في الوقت نفسه إذا كان هناك شخص استعملها وسار فيها فهو قد سار في طريق التدريب، فإنا أول مرة سمعتها كان عمري 12 عاماً، وكان لي خال يعمل في هيئة الأمم (ميكانيكي)، وأتى في إحدى المرات بأشخاص كان مع أحدهم كلب، وأنا أخاف الكلاب، فتراجعت للوراء، فقال لي لا تخف (it's trained)، فلم أفهمها جيداً، وقلت: وما دخلي أنا. فأعلمني باللغة الإنجليزية أن هذا الكلب قد قام بتدريبه، ومرت فترة قبل أن أسمع كلمة (trained)، وبدل تدريب الكلاب أصبحنا ندرب الناس والأشخاص، والآن كلمة (training) أو تدريب تستعمل بكثرة وبغزارة، وإذا نظرت فيها تجد أنها وكأنك تضع شخص على "ترين" أو على سكة حديد، وبعد ذلك دعه يمشي، وإذا لم يستطع أن يمشي نرميه خارجاً (drop out) باللغة الإنجليزية، وفي اللغة العربية لا يوجد معنى مرادف لـ (drop out)، وأخذنا نبحث فوجدنا "متسرب"، وهي أهون قليلاً، هو قرر أن يتسرب دون أن يلاحظه أحد، وليس سربناه أو مُسرب. ولهذا معان كثيرة، لكن هذا ليس ما أريد أن أصل إليه: إلى أين نحن ذاهبون؟ لا أريد اقتراح أجوبة حتى لا أقع في المنطق نفسه الذي أنا ضده، ، ولكن الذي أستطيع أن أقوله هو بعض الأشياء وبعض القصص، وهذا ما أؤمن به، أنا لا أؤمن بنماذج أو أجوبة، ولكني أؤمن بالقصص. الواحد منها يسمع تجربة ليس لها معنى واحد، كل منا يأخذ منها ما يريد، فليس مطلوباً أن آخذ معاني الشخص، ولا أن آخذ شيئاً جاهزاً، بل المطلوب أن أدخل في الحوار ومن خلاله أبني عالمي الخاص، كلمة التنمية لها فترة في ذهني، ما هي الكلمة التي استعملها وأحبها، فقط في الأوقات التي أشعر فيها بحيوية عالية، وحيوية عالية تعني في بعض الأحيان الوقوف مكانك، أو في بعض الأحيان الرجوع للوراء، هذا الذي اسمه تقدم، واحدة من الكلمات التي نقصف بها هي ما يجعل الشخص ينظر إلى أين يسير الناس ليسير.

الأفكار مثل الحكمة التي قمنا ببيعها دون مقابل، ولا يوجد عند الغرب حكمة، حتى عندما نستعمل كلمة الحكمة يقال لك هذه كلمة عفي عليها الزمن. العالم الآن هو عالم علم وتكنولوجيا، وعالم منافسة وعولمة . . . الخ، لا يوجد شيء اسمه حكمة، وما دمر الغرب ودمرنا معه هو غياب الحكمة، لأن العلم دون حكمة، والمعرفة دون حكمة، هي غطرسة وقوة.

دعني أعطيك مثالاً على الفرق بين العلم والحكمة، وخذ فلسطين مثالاً: واضح أن المياه في فلسطين قليلة، فعندما جاء الإنجليز إلى بلادنا، من الأشياء التي علمونا إياها أن الطريقة المثلى للتخلص من المواد العادمة هو بالماء، فأحضروا لنا "السيفون" وبعد "السيفون" عملوا لنا مجاري، فصرنا نأخذ الشيء الجيد من التربة (النيترات) ونرميه في البحر، أو إلى أي مكان، وهذه واحدة من المشاكل الخاصة بالسيفون، والمشكلة الأخرى لو استخدمنا جميعنا السيفون، فمن الواضح إنه بعد 10سنوات نجد أن 20% منا عنده مياه كافية، والباقي لا أريد أن أقول أنه سيموت من العطش، بل لا يجد ما يسد حاجته.

والسؤال هنا هو: هل هذا الطريق الأنسب في فلسطين؟ والجواب واضح، لا. هل هناك طرق أخرى؟ الجواب نعم، وهي كثيرة، ولكن تنفيذ الطرق الأخرى لا يحتاج إلى مقاولين، ولا يحقق أرباحاً، ولهذا السبب لا تجد أحداً يشجعها، ويعلن عنها ويتبناها، وهذا يعني أنه لا بد أن

نشجعها بأنفسنا، وهناك طرق عديدة لذلك. وأول مرة رأيت فيها طريقة جيدة كانت في جنوب المكسيك في مدينة اسمها واهاكا، وأغلبهم سكان أصليون، والطريقة التي يستعملونها – ولا يوجد عندهم مياه أيضا– يطلقون عليها باللغة الإنجليزية (dry latrine)، يعني تستطيع أن تستعمل الشيد دون أن تستعمل المياه، وأنا استعملتها، ولم أواجه أي مشكلة. أقول كلمة بسيطة من هذا النوع، وإذا استعملت كلمة تنمية لا بد أن تكون من هذا النوع، وهي كأنها نوع من العودة للوراء، والشخص يعود ليعيش في ما هو متوفر، أما أن أعيش بطريقة نتيجتها 20% يستطيعون أن يعيشوها والباقي لا، فهذا مثل التعليم، نعلم 100% من الطلاب من أجل أن نحصل على 10%، أو 20%، أما الباقي فنقول لهم نحن متأسفون لم يبق لكم أماكن، الذنب ذنبكم لأنكم فاشلون.

ما أريد قوله هنا أن الكلمات هذه التي نقصف بها تحد من تفكيرنا وتسيطر عليه، وتحد من الخيال والبدائل الممكنة، بمعنى أن أي شخص تحدثه عن التعليم يقول لك نعم، ولكن ما هو البديل؟ ولكن هناك مليون بديل وليس بديلاً واحداً، كل الناس يتعلمون طرقاً ثانية، ولكن لا نعطيهم شهادات، الشيء الذي جعلني أرى هذه الأمور بشكل واضح حدث في السبعينيات عندما كنت مسؤولاً عن تعليم الرياضيات في كل مدارس الضفة لمدة خمس سنوات، وحاولت أن أجد شيئاً يعطي للرياضيات معنى لها، وطبعا لأنني متعلم في جامعة فأين سأجد المعنى، أكيد في الكتب، وبدأت أبحث في الكتب والمجلات، وصدفة تذكرت أن أمي التي في البيت وهي أميّة تعرف رياضيات أفضل كثيراً من الرياضيات التي أعرفها عندما تخيط. كانت تأتي مثلاً امرأة في الصباح وتعطيها قطعة قماش مستطيلة الشكل، وأمي لأنها لا تعرف القراءة والكتابة، كانت تأخذ القياسات بطريقتها: طباشير ملونة، وكل لون يشير لشيء مثل الطول، أو الخصر، أو الكم . . . الخ. وعند الظهر تصبح هذه القطعة ثلاثين قطعة، وهذه القطع في المساء تصبح لباساً على شخص معين بدقة لا تقل نسبتها عن 100%، وعملت لأكثر من 40 سنة في هذا النوع من الرياضيات، ولم تخطئ أبداً. وعندما تنبهت لذلك، قلت هذه هي الرياضيات، ولو درست أيضاً 20 سنة في الجامعة لن أعمل مثلها، ولا أستطيع.

وشيء آخر عن القدرة بالنسبة لأمي، فمع أنها أميّة فقد خلقت لنا جواً في البيت لي ولأخواتي، أنا أحمل شهادة دكتوراه في التربية لكني لم أستطع توفيره لأولادي. إذن، أين المشكلة؟ المشكلة أنَّ المعرفة مرتبطة بالنص، نابعة من النص، نابعة من الكلمات، ونابعة من رموز، ومشكلة المعرفة تحتاج إلي كيانات معينة أسمها مؤسسات، لقد كتبت عنها عند انتهاي لها مقالاً، وعند نشره قامت بعض المجموعات اليهودية بإلغاء اشتراكها بالمجلة. وتناولت في المقال مقارنة بين الدجاجة الفلسطينية والدجاجة الإسرائيلية، الدجاجة الإسرائيلية يضعوها تحت الضوء وتأكل علفاً معيناً، وكل شيء مرتب في حياتها، وإذا تعكر شيء واختل تختل الدجاجة ولا تستطيع أن تبيض، أما الدجاجة الفلسطينية تعيش على المكبات، والقمامة، وتتنقل من هنا إلي هناك، وتكون بصحة جيدة. وكتبت في المقال أن الرياضيات الخاصة بي بالضبط مثل الدجاجة الإسرائيلية. ضعني في مؤسسة، وأعطني منهاجاً وامتحاناً، بعدها يعطي شهادات وتقييمات، إنني معلم ممتاز، وأنا ما تعلمت شيئاً، بينما أمي مثل الدجاجة الفلسطينية أينما تضعها تبدع، وتنجح، ولا يكون هناك رئيس يحاسبها على أوقات الدوام، أو التقرير الذي يجب أن تسلمه في النهاية وتكون محترمة. قال: ماذا يريدون؟ تمكين أمي، ويجب أن نمكّن الأم، ماذا تقولون أنا من يحتاج إلى تمكين، أنا الذي لا يوجد عندي تمكين، ولا يوجد عندي جذور، ولكن التمكين هي كلمة نقصف بها، نأخذها ونبيعها، لأن امرأة تعمل في القرية إذن هي لا يوجد عندها تمكين إلى هذه اللحظة، وهل يمكن إيجاد طريقة نخلق بها معلمين ومعلمات متمكنين أكثر من الأم، ما تعمله الأم لا يمكن أن يحصل عليه أي شخص من أي مؤسسة، وفي الوقت نفسه يقولون: نريد أن نعمل على تمكين الأم.

الشيء الثاني الذي هزني كانت عبارة للإمام عليّ، وقرأت هذه العبارة سنة 1998 عندما بدأت الملتقى التربوي العربي، وهو عبارة عن خلق حوار عربي عربي حول موضوع التعلم والحوار والمعرفة، وهي التي لخصت الدور الجيد للغة، تقول العبارة: "قيمة كل امرئ ما يحسنه". وعن طريق معرفتنا باللغة العربية كلمة "يحسنه" لها معان عدة؛ أولاً الإتقان، وثانياً الجمال، وثالثاً العمل الحسن الذي لا يضر المجتمع، ويكون حسن للمجتمع، رابعاً بمعنى العطاء، فمثلا تأخذ دورة في تعليم التفكير، وتذهب وتعلم ما أخذته، أنت لم تعط شيئاً من نفسك، وما هضمت أي شيء، كل ما هنالك أنك أخذت هذه الآليات ونقلتها فقط، خامساً يكون لديك احترام في التجادل مع الآخرين، وجادلهم بالتي هي أحسن. إذن، لاحظوا روعة هذه الجملة، أنا عندما قرأتها قلت: غريب، نحن العرب عندنا هذه الجملة قبل 1400 سنة، ونبحث عن جواب لتعليم، لتعلم حواري. ولكن هذه الكلمة تنسف كل إهانة للإنسان عن طريق التقييم، لاحظوا العبارة ماذا تقول: لا تقل أنك الأفضل لأنك أفضل من الذي بجانبك، أنت أفضل بما تحسنه، وقيمتك بما تحسنه، وليس لها معنى واحد في مكان، في مجتمع، في شخص في علاقته بالمجتمع ومع الذين حوله. إذن، القيمة منبعثة من داخلك، وبما تعطيه وفي الوقت نفسه ما تحسنه؛ أي عمل حسن، عمل جيد، أو فيه احترام، إذن القيمة قادمة من داخلك ومنك وعلاقتك مع حولك، هذا الكلام يختلف جذرياً، يوجد فيه احترام للإنسان، حسب الفكر الحديث. قبل 1400 سنة تريد أن تحضر لنا جملة، وكل هذه النظريات الحديثة، وأيضاً جزء من القصف، وعندما أقول نظرية حديثة استعمل كلمة حديثة، وإن كانت حديثة قادمة من جامعة أكسفورد، ولكن من أنت، أو من هو الإمام علي حتى تقول إن ستانفورد مخطئ، أو ماذا يعلم، لا يوجد عنده دوائر ولا مختبرات ولا معرفة ولا شيء آخر، أريد أن أذكره لأنه أيضاً مرتبط بالثقافة، ونرجع هنا للإصلاح الثقافي، ففي الانتفاضة الأولى وفترة السبعينيات جسد –برأيي– أجمل ما في الثقافة، وبشكل خاص في الموسيقى الفلسطينية، والفن، والحياة، وفي الوقت نفسه ألغينا كل هذا الكلام ونسيناه، ونحاول أن نطبق شيئاً آخر التنمية والإصلاح والديمقراطية. في السبعينيات، كان أي شيء يصنع، يكون الناس جميعهم شركاء فيه، ولم تكن هذه الكلمة الملوثة قد وصلتنا، والسبب هو أنه لم يكن لنا هوية مؤسساتية، أو كيان، يصلنا من خلاله البنك الدولي أو الأمم المتحدة، ويدخلان في نسيجنا الاجتماعي، وكان المبدأ في السبعينيات الشراكة في إدارة شؤون الحياة، وهذا معنى الديمقراطية، وليس أن ننتخب شخصاً، وبعدها يفعل هو ما

يريد، فمثلاً انتخبوا بوش، وهو بعدها فعل الذي يريده هو.

في الانتفاضة الأولى لم تستعمل كلمة ديمقراطية، ولا أعتقد أن هناك شخصاً لم يشارك في الانتفاضة، وهناك صورة في ذهني لطفل في غزة، وكان هناك شباب يحملون حجارة لوضعها على الحاجز، وكان هناك طفل يحمل مصاصة، وعندها حضر جيش الاحتلال الإسرائيلي فوضع كل واحد من الشباب الحجر الذي يحمله على الحاجز وهرب، وإذا بالطفل يضع رضاعته التي يحملها على الحاجز ويهرب مع الشباب، فما فعله الطفل هو المشاركة كإحساس كل شخص يشعر أنه شريك. قضية الشراكة تمارس بعمق، ولا يوجد شخص بيننا يشعر أنه ليس شريكاً، وحتى هذا الطفل الذي لا يعلم معنى الشراكة، شارك، وعشنا تجارب هائلة ورائعة، ولم نكن نخلق لها مصطلحات وكلمات، وأرى أن جزءاً من مهمتنا كأشخاص نعمل مع الشباب، وفي حقل التعليم، وفي المجال المجتمعي بشكل عام، هو لعب دور أساسي في تكوين كلمات ومعانٍ، والنظر إلى الإنسان أنه شريك في تكوين المعاني والتعابير، تكوين المعنى والإدراك والمعيار، وإذا تنازل الإنسان عن هذا الحق، فإن كل الحقوق الأخرى لا تساوي شيئاً، من حقنا وواجبنا أن نستعمل كلمات ومعاني تعكس خبرتنا، ولا يزال أضعف جزء في حياتنا كفلسطينيين حتى الآن هو بناء وتكوين الكلمات والمعاني والمعايير النابعة منا، وسبب ذلك -كما لاحظتم- هو أنه خلال الانتفاضتين الأولى والثانية نزلت علينا كمية هائلة من الكلمات؛ كالديمقراطية، وحقوق الإنسان، والآن الإصلاح، وأنتم لا تستطيعون أن تتعاملوا مع هذه الكلمات أو تفكروا بها، ولا يوجد عندكم كذا . . وكذا، ما أدى إلى أن يقبل بها الشخص ويسلم بها. كل إنسان هو شريك في تكوين المعنى. لذلك، فكل كلمة تستعملها ولم يكن لها خبرة خاصة، أو معنى خاص نابع منك، يفضل ألا تستعملها. أنا شخصياً لا أستعمل كلمة "مجتمع مدني"؛ لأنه لا يوجد عندي أي معنى خاص لكلمة مجتمع مدني، وأستطيع أن اقرأ عن المجتمع المدني وأعيده، ولكن هذا لا يخرج مني، وأنا استعمل كلمة مجتمع لأني أعلم معنى كلمة مجتمع، وبخاصة في السبعينيات في الضفة الغربية، وفي الانتفاضة الأولى كان لا يوجد شيء إلا مجتمع، وهذا المجتمع لم يكن مجزأ، وكل شخص كان جزءاً من المجتمع. إذا سألتني ما هو المجتمع؟ أستطيع أن أخبرك، لأني عشت به، أما بالنسبة لمجتمع مدني فلا أعلم؛ لأنه ليس عندي معنى خاص، ومن المهم جداً أن نستعمل هذا الكلام مع الأطفال، ولا نستعمل كلمة لا تحمل معنى خاصاً، لأننا نكون -دون قصد- نقصف الطفل أو الطالب أو الآخر بكلمة ليس لها أي قيمة.

كلمة أخيرة أريد أن أقولها، وتوضح قوة الثقافة، وربما سمع بعضكم عن هنتغتون الذي كتب صراع الحضارات، وهو كتب كتاباً سنة 2004 اسمه *(who are we)*، والكتاب يقول ليس الإسلام هو الخطر على أمريكا، الذين يشكلون خطراً على أمريكا هم ما يسمونهم "هسبانك"، وهم الذين حضروا من المكسيك أو بورتوريكو أو كوبا وبلدهم مختلط ومن شعوب مختلفة وليسوا من السكان الأصليين لأمريكا.

لماذا هم الخطر؟ فهم لم يفعلوا شيئاً يعد خطراً، والسبب بسيط: هذا الإنسان يرقص ويغني ويتزوج ويأكل بطريقة خاصة به، ولا تعجبه اللغة الإنجليزية، ويقولون له تعلم اللغة الإنجليزية يتحسن وضعك، فيقول شكراً أنا أشعر بضيق عند سماعي اللغة الإنجليزية، أو عندما أتكلمها، دعوني في اللغة الأسبانية، أنا هكذا مرتاح. والسؤال هنا عن خطر الهسبانك يكمن في الثقافة، لأنه يرفض أن يلعب لعبة التقدم، وكلمة تقدم تعني أن تصبح قادراً على التحدث بالإنجليزية، وأن تقاتل من أجل شهادة عليا، فلا يعجبهم أن تقول: أنا أحيا بسعادة مع أهلي وأولادي فماذا أريد من التقدم. والجزء المهم في الثقافة هو الحق في تكوين المعرفة، والشراكة في تكوين المعرفة. انتبهوا أن هذا الحق واضح ولكنه غير موجود في الإعلام العربي، ولا في إعلان حقوق الإنسان؛ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان كان أول مصيبة في التاريخ، وهو قد تحدث باسم كل الناس ولم يستشرهم. وأعلن الإعلان العالمي باسم جميع الناس دون استشارة شعب واحد، ولم يجرِ أي نقاش أو أي مقترح حول الحقوق المقترحة، ومن الذي استشاروه؟ لقد استشاروا الحكومات، ولكن من الذي ينتهك حقوق الناس؟ إنها الحكومات، يعني أن كل هؤلاء المجرمين (162 دولة) وضعوا هذه الحقوق وسرى مفعولها، والآن تفرض علينا وكأنها حقوقنا.

هذه الكلمات كما قال وسيم غير بريئة، وبشكلها هذا تحاول السيطرة على العقل وتجريده من كل قيمة موجودة فيه، وعلينا البحث عن كلماتنا لنستعملها بشكل يؤدي إلى قلب الأمور. في ذهني تصورات لأرى الأمور بطريقة أخرى مثل عبارة الإمام علي "قيمة كل امرئ ما يحسنه"، ونستطيع أن نبدأ خطوة خطوة في الأماكن البسيطة، ونحاول أن نجسد هذا المعنى بشكل لا يسمح لشخص أن يقول للآخر ليس هذا هو المعنى الصحيح، وكل واحد باجتهاده يستطيع أن يبني معنى لهذه العلاقة، وتتغير كل حياتنا إذا غيرنا مصدر قيمة الإنسان وجذرها، الآن مصدر قيمة الإنسان قادم من المؤسسات، ومن الألقاب، من مهنيين، والامتحانات، والرموز، والشهادات، ولا بد من جعل قيمة الإنسان ترتبط بما يحسنه، لاحظوا حجم التغيير الذي سينتج، هذه ليست عملية بسيطة لأن معناها أننا نحاول أن نشفى من 350 سنة من الخطأ الذي زرع بذوره "نبريها"، وجرب زرعه في عقل إيزابيلا ورفضت، ولكنه نجح في زرعه في عقول الناس جميعاً. وشكراً

## نقاش ومداخلات

أنا صحافي ومراسل جريدة القدس العربي: أشكرك على المعلومات القيمة والمفيدة والجميلة، ولأنك قلت تريد لغة مشتركة، بشكل مختصر ماذا تريد أن تقول؟ أنت تحدثت في الأدب، والشعر، والفلسفة، والتاريخ، والتراث، وأنا أفهم من كلامك وأشجعه، أن هناك مصطلحات

تروجها المخابرات الأمريكية والإمبريالية والاستعمار، وتدخل في حياتنا السياسية والثقافية والاجتماعية مثل: إصلاح، وديمقراطية، وإرهاب. الفدائي كان في الماضي، يطلق العدو مصطلح "مخرب"، أنا تعلمت ذلك السبعينيات، كانت جارتنا ليست فلسطينية، وكنت أتقاتل أنا وابنها، فقالت لأمي: هذا ابنك مخرب، أما الآن في 2006 فيقولون إرهابي، يعني هل هذا يعني أن جذر كل ما يصدر إلينا هو جذر سياسي متعلق بسياسة الولايات المتحدة ومصالحها أم هو مسألة أعم متصلة بالأدب واللغة والاقتصاد؟

سؤال لمشارك آخر:
ما هي اللغة التي تحدثت معنا بها الآن؟ هل هي لغتك أم اللغة العربية بكل ما تحمل؟ بمعنى أن الكلمات التي استعملتها وأعطيتها معاني لأنه لا يوجد طريقة أخرى لفهمها، أنا أطلب منك أن تعمل الشيء نفسه، تأخذ هذه المعاني وتسألها: هل تمكنت من حمل ما أردته لها؟

ولذلك قد أقول لك إني استنتجت من حديثك أن ثمة مبرراً لفهم قيام حركة طالبان بمنع التعليم في بعض الأحيان، لأن المدارس تعلمهم شيئاً بعيداً عنهم وعن حياتهم، غير أنهم يصنعون لغتهم الخاصة وحاجاتهم التي تتفق مع بيئتهم المحلية. يجوز لك أن تشبه المكسيك في علاجهم لمشكلة المياه، وبهذا كأنك تعطي شرعية لسلوك من وجهة نظرهم صحيح، وهو سلوك إرهابي، ومتخلف، ورجعي، وكأنه لا توجد بدائل، والبديل الوحيد الذي اقترحته هو أن توجد ثقافة عولمة تقصفنا بالكلمات، وتوجد ثقافة مقاومة مهمتها أن تضع البدائل لهذه المعاني التي نقصف بها. أنا أجد أن هناك حرباً في اللغة، حتى اللغة "المنيرية" كيف يمكن أن نتحرر منها، وتقول أن مشاكلنا هي أن هناك معلماً يتحدث بلغة في المدرسة غير اللغة التي يتحدث بها الطلاب مع بعض البعض مثلا؟ كيف للمعلم أن يعلمهم لغتهم؟

وأنت لا تستطيع أن تعمل مثل أمك، لأنك لست خياطاً، وأمك لا تستطيع العمل مثلك كأن تعلّم رياضيات، والتقاسم الوظيفي إن جاز التعبير. وصناعة المعاني والثقافة هذه أيضاً تريد حقوق إنسان، وهذه الحقوق مصدرها المعرفة والغرب.

**مالك:**
فقط ملاحظة لتوضيح أن الندوة أو كما يحب منير أن يسميها لقاءً حوارياً أتت على خلفية ما قمنا به في مركز القطان، حيث كنا نعد ملفاً عن التربية والعولمة، فبعثنا لمنير رسالة وتشبثنا في الطلب أن يكتب للملف، واستخدمنا وتر فلسطين لتحقيق ذلك، هذه المرة فشحن منير وكتب هذه المادة، فلما وصلتني أذهلتني، وفكرت أكثر من مرة أن أعيدها لمنير، وأقول له: هذه تصلح كتاباً وليست مقالة، والمقالة موجودة في العدد، وعندما تقرأها سيزول ما لديك من التباس، ومنير في الكتابة تعمق أكثر، وطرح أكثر من عشرين فكرة، كل واحدة منها تصلح مادة لمقال، فمنير يرى أن الغرب تمركز حول ذاته ابتداء من القرن الخامس عشر، ولا يطرح بديلاً لأي مركزية ثانية، يطرح تفاعل كل هذه الثقافات والأفكار، وهناك أفكار أذهلتني عندما تحدث عن "تغير التقاليد بالطريقة التقليدية"، وليس تغير يمزق النسيج النفسي والاجتماعي للإنسان، مثلما تحدث وطرح أفكاراً كثيرة مذهلة، وأتمنى على الجميع أن يقرأها على ضوء الحوار الذي تعمق أكثر، ويمكن أن تكون هناك حوارات أخرى بوجود منير، فكرة الحرية –مثلاً– التي تحدث عن ثلاثة أشكال منها، الأولى: أن تعبر عن أفكار موجودة تعلمتها، والثانية حرية أن تشارك فيها في صياغة الأفكار ضمن نسق محدد، والثالثة هي حرية صنع المعاني وإنتاجها طبقاً لثقافتك ومجتمعك وربط ذلك بحرية المشي. وقال: حرية التفكير حرية السير، أنت يمكن أن تسير على الشوارع المعبدة، ولك حرية أكثر في أن تشارك في اختيار الطريق التي يمكن شقها، ولكن الحرية الثالثة وهي حرية اختيار طريقك بنفسك أن تمشي في الجبل أو السهل أو الوادي، ما جعلني أرى أنني أسير في بلدنا؛ القرية الصغيرة منذ عشرين سنة، ولكن الذي يحدد لي مساراتي هو مهندس البلدية وليس أنا، وعند زيارة أحد أصدقائي لا بد أن أرجع لمركز البلدة، أما الطريق عبر الجبل لبيت صديقي لا تأخذ سوى دقيقتين، وهذا جعلني أرجع وأعيد التفكير في كل الذي كنت أتحدث عنه، وكنت أنا أكتب مادة للعدد نفسه بالموازاة، وانتظر من منير مادة قادمة، وكتبت "عن مدرسة واسعة الخيال"، وجاءت مادة منير ليقولها بصدق أعلى وبدقة أعلى "ويقول مدرسة ليس فيها طبلة، أو حكواتي لا نريدها". بعد قراءة المادة والحديث الذي قاله منير يمكن أن نبني حواراً عميقاً؛ حواراً مفيداً ومجدياً، ومنير أخذ يعبر أكثر، ولكن لتوضيح الصورة التي على ضوئها انبنى هذا الحوار، أنا كنت أفكر أن نضيف كلمة على العنوان الذي اختاره منير، وقلت حشيت من أن يعتبرها فكرة مؤسساتية ويرفض، وكنت أفكر بوضع عنوان "عدّ إلى لغتك"، وبعدها قلت دعها على براءتها الأولى مثلما اختارها منير.

**من غزة**
هذا الموضوع جيد يا دكتور منير، وفتح في ذهننا موضوعات جديدة، فأول ما تبادر لذهننا من قصف الكلمة هو وقع الكلمة على السامع أو القارئ،

فهي تنطلق من ثقافة المعلم، وتقع أيضا على ثقافة المجتمع أو القارئ، يعني أن للكلمة وقعاً يرتبط بثقافة الإنسان، فللنصوص المقدسة "القرآن مثلاً "وقع مختلف على الناس، له علاقة بكيميائية الكلمات من جهة، واستعداد المتلقي من جهة أخرى.

أنا احترم جداً التصور الفلسفي للدكتور منير، لكني دائماً ميداني في العمل من ناحية تربوية، وأحياناً نحن نستعمل كلمات احتلال، وهذا هو احتلال العقل، فكلمة مستوطن هي في الحقيقة كلمة جيدة بالنسبة للاحتلال، لان الاحتلال استخدمها، ونحن بقينا نستخدمها، يعني أنه يمكن أن نستعمل ثقافة التغير مثل ما قال منير نريد كفلسطينيين لغة خاصة بنا، مثل مغتصب أو مغتصبة بدل مستوطن ومستوطنة.

أنا أعتقد أن تأثير الكلمات على السامعين له علاقة بوضوحها "قرب معناها من ثقافة السامعين"، ونحن -كتربويين- تهمنا هذه النقطة حتى نوظفها في مجال عملنا التعليمي والتربوي، من أجل تعليم لغوي يربط اللغة بنبض الإنسان، وعلى المعلم يقع دور توضيح معاني الكلمات المستخدمة، لأن الغموض يلغي أهمية الكلمة، والقدرة على استيعاب الطلبة لها، ولذلك لا بد من مراعاة الكلمات المستخدمة وخصائصها ووقتها وسياقاتها، لأن الكلمة تفهم من السياق، وبلاغتها ووقعها في نفس الطالب وشموليتها. هذا الذي أريد أن أركز عليه: وقع الكلمة في التطبيق المباشر في العملية التربوية.

شكراً لدكتور منير على هذه المحاضرة، وبخاصة أننا كنا في غاية الشوق للسماع عن قصف الكلمات، الكل هنا متأثر بهذه الحرب من الكلمات، هناك كلمات لها أثر ليس علينا فقط كفلسطينيين وإنما على الشرق الأوسط ككل والعالم العربي، فعندما ظهرت كلمة الدول النامية وكلمة متخلفة والعالم الثالث، ولو استعملتُ كلمة تنمية، وإصلاح، وتقويم، لن أخرج من هذا الإطار الذي وضعت فيه، حتى في كل الاتفاقيات يجب أن يملى عليّ لأنني نامية، ولم نكتفِ فجاءت كلمات أخرى، وأصبحت شرق أوسطية، بل خرجت كلمة يضعك في العبودية ولا العدل، فأنت أقل وأدنى من مرتبة العدل، يجب انَ تقاوم لتصل لمرتبة العدل.

اليوم هم قادمون لـ"تحرير" العراق، وما زالوا يتعاطون معنا بنفس المعنى ونفس الإطار. شكرا دكتور منير.

أتمنى أن تكون هذه المحاضرة أو اللقاء الحواري فاتحة خير بأن لا نفعل إلا ما يناسبنا، وأن ما يناسبنا ليس بالضرورة أن يناسب الآخرين، وألا نستهن بالناس البسطاء حتى لو كانوا أميين وغير متعلمين، وأن نعمل على تعريب تعاليمنا وتوطين هذا التعليم إن أمكن، لأنه أسعدني ملامسة الواقع الثقافي للإنسان الفلسطيني، لأننا فقدنا كل إنسانيتنا إن صح التعبير لنصل إلى هوته ثقافية في المناهج التعليمية، ولنحترم أنفسنا أولاً حتى نفرض على الآخرين أن يحترمونا، وأفضل مثال على ذلك الدنمرك، الذين لا يعلمون من هو محمد (ص)، وهذا عيبنا، وهذا نقص مع احترامي الشديد للموجودين في ثقافتنا، فنحن لم نوصل لهم من هو محمد (ص).

**من رام الله**

لدي تساءل، أنت تدعو إلى استبدال المؤسسة القائمة التي تتحكم بالعقل والإنسان بما يسمى الحكمة الجماعية التي تضمن مبدأ المشاركة، وإذا كان هذا ما تدعو إليه فهل المؤسسة الدينية تملك التمازج بين الحكمة والمؤسسة؟ هل هي في الإطار الذي تدعو إليه؟ نشأت في فترات متعددة الحركات الفوضوية، الذين رفضوا المؤسسة ودعوا إلى الحكمة الفردية، لأن التجربة الإنسانية هي نتاج للحكمة الفردية، ورفضوا فكرة المؤسسة باعتبارها أساساً لتطور الحياة، أين أنت موجود من هذه الدعوات؟ والمثل الثالث هو عربي وهو القذافي، طرح مفهوم استبدال المؤسسة بالمشاركة الشعبية، فخرج عندنا كل الشعب يحكم، ولكن القذافي هو الوحيد الذي يحكم، أرجو أن نضع الأمور في سياقها، إلى أي حد نستطيع أن نمأسس؟ وإلى أي حد نستطيع المشاركة؟ وكيف يمكن لهذا أن يتجسد باللغة؟ وأين الدور الذي تلعبه؟ أنا متأكد من أن في ليبيا جزءاً كبيراً من الناس يعتقد أنها مشاركة، وهذا أحد أساليب استخدام اللغة بطريقة أخرى. الملاحظة الأخيرة أن الحكمة تحولت إلى نص، يكون دورها نفس دور السلطة الحاكمة، فهل يصبح دورها قمعياً؟

لو فحصنا عنوان الندوة الحوارية "التعليم في مواجهة الكلمات والقصف اللغوي"، نستطيع أن نقول إن هذا العنوان موقف، وبما أن هنالك مواجهة وقصفاً وكلمات واختراقاً لغوياً، فهل رصدنا هذه القذائف أو الكلمات المقذوفة ووضعناها في جداول حتى نتصدى لها ونستطيع أن نواجهها؟ السؤال الثاني هل أن المقذوفات والمقصوفات هي كلمات فقط أم هي أيضاً أمثال شعبية مقبولة ومتداولة وليس مرصودة في مجتمعنا وأعطيكم مثالين على ذلك: اطلب العلم من المهد إلى الحد، الاستعمار البريطاني في بداية القرن العشرين أدخل على مجتمعنا المثل القائل: "بعد

ما شاب ودوه على الكتاب" ، لاحظوا أن هذا المثل متداول ومستعمل وغير مستنكر ولا يقع في أنفسنا وقعا سيئاً، وإنما يتداول حتى من الطبقات المثقفة، وأيضاً "الكف ما بتناطح مخرز" ، وأيضاً "من تدخل فيما لا يعنيه لقي ما لا يرضيه" ، وهذه الأمثلة كثيرة جداً، تعارض معارضة كبيرة جداً لثقافتنا وحضارتنا العربية الإسلامية، ويقابل هذا المثل "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" ، وبالتالي ما هو دوركم أو أدوارنا فيما يريد مواجهة قصف الكلمات؟ هل تواجه الكلمات الحديثة المتداولة؟ كما قال الزملاء في غزة نحن في الإعلام نحاول أن نضع دليلاً لهذه الكلمات، حتى هذه الكلمات البديلة التي نستعملها، لها وقعها ومعانيها ومراميها التي ربما تغلف معاني أيضاً ايجابية، وهي أيضاً في غاية السلبية، أنا أعجبتني الكلمات التي ذكرت في دعوتكم، ويشكل الإعلام والتعليم كلمتين متلازمتين متلاقيتين وهم المجالان الرئيسان اللذان يتم من خلالهما القصف بالكلمات، الأمثال الشعبية هي من الوسائل والآليات المتداولة في الإعلام، وهي وسيلة إعلامية ناجحة جداً.

**مشارك آخر**

اسمي محمد فاروق، في الواقع استغرب من أنك تعارض التعليم والتدريب والتقييم، فكيف من الممكن أن يتعلم الإنسان دون أن يكون هناك نظام تعليمي معين ومنهج معين؟ وهل العيب في المنهج أم في كيفية تناوله أم في صياغته؟ ثم تعارض التقييم ولكن التقييم ضروري، لكن أسلوب التقييم هنا هو ما نختلف عليه، والقدرات الفردية مختلفة من شخص إلى آخر، وهذا لا بد أن يؤخذ بعين الاعتبار. كذلك موضوع التدريب، أنا أرى أنه من الضروري أن يكون في حياة الإنسان تدريب، لأن هناك أشياء كثيرة تختلف عن التعليم، لأنه التعليم شيء والتدريب شيء آخر، وما لم نتدرب عليه لا نستطيع أن نتقنه، مثلاً أريد أن أقود سيارة، وهنا يمكن أن نختلف في المصطلح، ولكن دون أن أتعلم وأتدرب كيف أقود السيارة بأسلوب معين وأسلوب سليم وبأسلوب أحافظ به على نفسي وغيري والمجتمع، لا يمكن لي أن أتعلم قيادة السيارة، وإن لم أتعلم أسلوب السير وإشارات المرور، وصحيح هي دخيلة على حضارتنا، ولكن لا بد من التعامل معها. فما هي البدائل؟ أنت طرحت كثيراً من النقاط الجيدة التي نشكرك عليها، وفتّحت أذهاننا على أشياء كثيرة، ولكن أرغب في أن أسمع البدائل، وكيف نعالج هذه المواقف وهذه المفاهيم التي طرحتها؟ وكيف أيضاً نعالجها مع أبنائنا والجيل الآخر الذي نتعامل معه سواء في البيت أم المجتمع أم أي مكان آخر؟ ومن المسؤول في الواقع؟ هل هي وزارات التربية والتعليم أم هو الإعلام عن تبني هذه المصطلحات التي نقصف بها؟ وما هي بدائلها؟ وكيف نتعامل ونتعاطى معها؟ وكيف نعمم هذه البدائل؟

**د. فيحاء عبد الهادي:**

إذا أردنا أن نواصل الحوار فأنا مع قلب الأمور، وفكرة قلب الأمور هي فكرة جميلة وضرورية جداً في وضعنا الحالي الصعب والمتردي، لكن المهم هو كيف نقلب الأمور؟ وهذا موضوع آخر. عندما نتحدث عن كم الخبرة والحكمة التي نكتسبهما من الناس البسطاء أنا مع الناس البسطاء، فمن صدورهم تخرج الحكمة، التي يجب أن تخرج ويتم تسجيل ما في صدورهم من كنوز مخفية، عبر التاريخ الشفوي، ومن خلال التعامل معهم، ولكني في الوقت نفسه أخاف من تقديس الحس الشعبي بغثه وسمينه، فنحن سئمنا العقل الواحد، والرأي الواحد، والشيء الواحد، وهنا نأتي إلى فكرة طالبان، وهي تعني الشيء الواحد، والجميع لا بد أن يسير على المسطرة نفسها، أي أنه ليس كل ما هو شعبي يجب أن نأخذه ونقدسه لأنه قادم من الناس، فكل واحد من هؤلاء الناس الشعبيين والمتعلمين له شيء يقدسه، والذي يتأثر بالعوالم والعولمة ليس المتعلمين فقط، بل أيضاً الناس العاديون يتأثرون، ولكن من سيفرق بين الغث والسمين؟ وهناك خوف من طرق هذا الموضوع، بحيث يجب أن نغربل كل المقترحات التي تخترق حياتنا، وأيضاً تخترق جميع المستويات. هل قلب الأمور هي الورش والتدريب والنقاش، والحديث مع الناس المتعلمين بطريقة تختلف عن الحديث مع الناس الشعبيين في القرى والمخيمات.

**غزة**

في الحقيقة أريد طرح نقطة واحدة، هناك كلمات قصفنا بها من الخارج، وهناك كلمات من الداخل، وهذه أخطر، فهل المطلوب إعادة بناء مجتمعنا وهيكلته وانتقاء قادة غير مقصوفين للتصدي للقصف بأنواعه كافة.

**وسيم:**

دعونا نعود بالحوار إلى جوهر الفكرة، لم يدعونا منير إلى عدم استعمال كلمة تنمية أو تمكين، المهم كيف تستعمل، وسياقات استعمالها، والمعاني التي وراءها، والإحالات. ليس المطلوب إلغاء كلمات وإحلال كلمات أخرى ستحمل المضامين نفسها والدلالات والمعاني نفسها. عندما يحضر شخص ويقول "أسلمة المجتمع" ، هناك أحادية في التفكير، أو يأتي شخص ويقول يجب أن يكون المجتمع إباحياً فهذه أحادية أيضاً. نحن نتحدث عن مجتمع فيه أفكار ومواقف وتنويع، منير تحدث عن التنويع هذا الذي يجب أن نلتقطه من المداخلة، لا يمكن إرسال الكلام بهذا الشكل وننسى المحاضرة، أنا أعتقد أن هناك خلطاً كبيراً، فلننطلق من محاضرة قيلت فيها كلمات ومفاهيم وتصورات وضعها منير في هذه المداخلة، وأنا قلت في البداية أهميتها وأهمية منير هو أن يضعنا في حوار وفي جدل: هل المدرسة ضرورية أم غير ضرورية؟ التنمية مهمة أم غير مهمة؟ هل مسألة الديمقراطية متعلقة فقط بالألفاظ والكلمات أم هي مسألة أكثر وأبعد من ذلك؟ لها علاقة بالخبرات، والمفاهيم، والقيم. منير لم يتحدث عما يجب على الرغم من أنه يستخدم مثالاً متطرفاً عندما يقول أمي تعرف في الرياضيات أكثر مني، وهذا ضمن مقياس معين صحيح، ولكن ضمن معايير ومقاييس أخرى قد لا يكون هذا صحيحاً، فيجب ألا تقول إن منير كان يقول إنه يجب أن نتمسك بالثقافة الشعبية بديلاً عن الثقافة العلمية والجامعات والمعاهد، دعوا النقاش في داخل الموضوع وأنا أعتقد أن هذا هو المفيد.

## منير فاشه في سياق رده على المداخلات والأسئلة

الهدف الرئيسي من مثل هذا اللقاء هو ما حصل، أن تطرح مداخلات متنوعة جداً وتنطلق جميعها من خبرات الأشخاص المتكلمين أنفسهم، وهذا بالضبط ما أسعى إليه، لأن الشخص عندما يقدم رأيه فإنه قدر الإمكان يحكي الكلمات والمعاني والقصص المتحصلة من تجربته والمتخلقة منها، ولا يستطيع شخص آخر أن يقول له: لا، ما تقوله أنت خطأ. أنا أتحدث عن تجربتي، وكلامي نوع من الكلام لاستعادة قيمة الخبرة الشخصية، ولتكوين معنى نابع من الخبرة. هذا لا يعني أن الخبرة منفصلة عما يجري في العالم، ولكن لا أستطيع أن ألغي الخبرة لو عرفت كل العالم، فمعرفتي تكون هنا ناقصة أو بلا فائدة، وهذا ما يحصل. فمثلاً؛ في الأبحاث ورسائل الدراسات العليا، نجد الشخص الباحث يكتب ماذا قال فلان وعلان، وعندما يقول الكاتب رأيه تقول له اللجنة لا تتحدث عن نفسك، مع أنه أنا الذي أكتب! يعني إلغاء الإنسان وإلغاء كلمته، ولذلك فخبرة الإنسان إذن هي شيء مهم لاستعادة قيمة الإنسان. من أجل هذا طرحت عبارة الإمام علي؛ لأنها تعيد القيمة للإنسان ولعلاقته مع ما حوله. إذاً عبارة الإمام علي تتناقض كلياً مع فكرة الفردية المغرقة؛ بمعنى أن الإنسان يعيش دون علاقات، مثلاً (CV) التي نسميها السيرة الذاتية لا تتحدث عن الشخص، وإنما تتحدث عن أناس آخرين أعطوا قيمة لهذا الشخص، أما الشخص نفسه فلا تتحدث عنه، (CV) هي جزء من تفكير نمطي استهلاكي، أي أنه حتى أقول لك إن بضاعتي جيدة، هذه هي قائمة المحتويات، إذن (CV) هي قائمة محتويات توضع في العلبة عند بيعها، هذه واحدة من الطرق التي يتم اتباعها على الأقل في المنظمات الأهلية والرسمية . . . الخ.

وهي لا تقيس قيمة الإنسان، وإنما تقيس من أعطاه الشهادات، والدورات، والخبرات. هناك شيء أريد أن أؤكد عليه: إن الكلمات التي تحدثت عنها بأنها جزء من السيطرة يوجد لها صفتان مهمتان، واحدة أنها تصبح مهنية عندما تكون التنمية ملك الشعب والناس ولها معان عديدة بحيث لا تسبب في اي مشكلة، فعندما تصبح الكلمة مهنية، يعني أن هناك مؤسسات وهناك مهنيون أو خبراء لهم الحق المطلق بأن يعطوها هم معناها، فهذه الكلمات هي التي أنا ضدها. أما الصفة الثانية، فأن يصبح لها مقياس، مقياس عالمي، عندما تحولت التنمية من ملك للناس وأصبحت كلمة مهنية تقاس، أصبحت كلمة استعمارية، يقصد منها قصف العقول واحتلال العقول والقلوب والروح وكل شيء، وتمزيق المجتمع والعالم الداخلي للإنسان. نحن عندما نتحدث عن كلمات بلاستيكية، فإننا نتحدث عن كلمات لهما هاتان الصفتان على الأقل: أن تصبح مهنية، وهناك مؤسسات مهنية لحراستها، والصفة الثانية يمكن قياسها لأن لهذه الكلمات دور هو بالضبط مثل دور حصان طروادة، فعندما فشل المحاصرون في دخول طروادة من الخارج، قالوا إن أفضل طريقة لدخولها هي من داخل المجتمع، ونفجره من الداخل. دور الكلمات أنا في رأيي هي كحصان طروادة المعاصر، الذي يدخل فينا ويفتتنا من الداخل، وأول شيء يفعله أنه يلغي قيمتنا كأفراد وكمجتمع وحضارة، ويفجر أيضاً علاقتي مع الآخرين. تذكروا أي كلمة تصبح مهنية أو يمكن قياسها من قبل مهنيين ومؤسسات هي التي ابتعد عنها، مثلما ابتعد عن مرض الايدز، لأنها تقصف، أي أنها تقتل المناعة الداخلية، وأصبح غير واثق بخبرتي، وغير واثق بلغتي وكلماتي ومجتمعي وحضارتي. قضية الإيمان بالناس والحضارة، هذا لا يعني أن نقبلها دون أن نفكر، أفضل كلمة سمعتها في هذا المجال كانت للسكان الأصليين للمكسيك، يقولون: "تغيير التقاليد بطرق تقليدية"، ولا أمزق التقاليد وأرميها، البعض سأل ما هي البدائل؟ أنا شخصياً غير مستعد للدخول في هذا الكلام عن البدائل، لأنه لو تحدثت عن البدائل فسأدخل في المنطق نفسه، أنا لن أتحدث عن البدائل، ولا بدائل عالمية ولا محلية، أتحدث عن حقيقة واحدة، أن كل إنسان شريك في تكوين البدائل، لأن الشيء الذي يناسبني قد لا يناسبك، فعندما أقول لك هذا هو البديل؛ على الشباب الفلسطيني أن يتبعوه، إذن أنا أتبع المنطق نفسه الذي أنا ضده، وهو المنطق نفسه وليس تفاصيل المنطق، ولا شكل المنطق، ولا مظهره الذي يعطي الحق لإنسان واحد ليقرر ما هو صحيح وما هو خطأ بالنسبة لأناس آخرين، عندما نصل إلى هذه الدرجة تولد المؤسسات التي تعطى كل شخص قيمته، هذه هي الطامة الكبرى، شخص يشخص ويقرر مصير أشخاص آخرين، بما في ذلك الجامعات مثلاً التي تقرر من يحق له أن يتعلم، ومن لا يحق له ذلك.

التعليم يحدث بطرق عدة؛ واحدة من هذه الطرق هي الطريقة التي تتحدث عنها المدرسة أو الجامعة، ولكن المشكلة ليست في الطريقة بقدر ما هي في احتكارها للتعليم، وهذه هي المشكلة في المدارس والجامعات، وتحتقر كل نوع آخر، والحل هنا ليس إغلاق المدارس، وإنما إنهاء إلزامية التعليم على طريق واحد يسمى التعليم الإلزامي الذي بموجبه على كل طفل أن يمر به. مثلاً ابني لا يرغب في أن يدرس المنهاج بطريقة وضعتها أنت، وإنما

يرغب في التعلم عن طريق الفنون أو الموسيقى أو القصص . . . الخ . أريد أن يقول لي أحدكم كيف أن الفلاح الذي يزرع لا نعطيه شيئاً، أما الذي يقرأ عشرين كتاباً عن الزراعة، ويصبح مهندساً زراعياً، وربما لم يمس التراب إلا ما ندر يعطى له كل شيء . هناك مشكلة أن تقول هذا متعلم وهذا غير متعلم، والسؤال هنا هو التنوع، فأنا شخصيا أقترح ما يلي وبشكل بسيط ومباشر، أن ميزانية التعليم غير الرسمي يجب أن يسترد جزء منها ووضعه في مرافق متنوعة، وخلق أشكال متعددة للتعلم، حينها سيتوفر أمام الأطفال خيارات متنوعة للتعلم بطرق مختلفة .

عندما كنت بالأردن كانوا يفتخرون ببرنامج التعليم المقنت آلياً، وأخذوني إلى غرفة الكمبيوتر لأرى أن لديهم كمبيوتر، وأشاهد الطلبة، وأول سؤال سألته لهم : هل يوجد عندكم غرفة فيها طبلة وعود ومزمار وشبابه؟ قالوا لا . قلت : بثمن كمبيوتر واحد تستطيع أن تملأ غرفة من هذه الأشياء، والكمبيوتر ليس بالأمر الراقي، لأنه لا يوجد طفل لا يستطيع أن يتعلم على الكمبيوتر في شهر واحد فقط، بينما الطبلة تعلم حياة، لأن كل يوم تستخدم الطبلة فيه، فإنك تستخدمها بشكل جديد، وتولد منها غذاء جديداً، غذاء روحياً . إذا اعتبرت الكمبيوتر ذا قيمة وأن الطبلة لا قيمة لها، فأنا اهدم أساس الثقافة والمجتمع وأساس التنوع . لا معنى أن آتي وأضع كل الجهود لأجل الكومبيوتر، كل الذي أريد أن أقوله هو استعادة احترام الناس لثقافاتهم ولذواتهم . ما حصل في الـ 500 سنة الأخيرة هو انحدار في احترام الناس كقيمة، وقد جاء للأسف تحت كلمات كالتقدم، والتنمية، ومحو الأمية . . . الخ .

كلمة واحدة أخيرة هي قضية تكوين المعنى، أريد أن أعطي قصة واحدة، في السبعينيات زرت المدارس، وسألت الأولاد الصغار : ماذا تعني لهم نقطة؟ أجما ما سمعته كان من طفلة عمرها سبع سنوات، قالت : "دائرة ما فيها ثقب" . في الأول فكرت أنها لم تفهم السؤال، ولكن بعدها نظرت إليها وقلت : ربما في المستقبل تستعملين كلمة عبقري، ولكن الذي قلتيه الآن هو هذا المعنى، فما ذكرته هو كلام يستحق وبحق لقب العبقرية . ولأني لم أره في أي بلد، ولم تخطر على ذهن أي رياضي، لكن الدائرة عندما يختفي الثقب فيها تصبح نقطة، هذه المرونة الموجودة، هذا الذي أقوله إن هذه الطفلة، في سياق ما، هي شريكة في تكوين معنى النقطة بشكل لم يسبقها إليه أي رياضي .

شكراً لكم، وشكر لمركز القطان للبحث والتطوير التربوي الذي منحني هذه الفرصة لألتقي بكم، وننتقل بالحوار إلى لحظة أخرى، لحظة هناك لحظات ومحطات سبقتها، وأخرى ستلحق بها، هذه اللقاءات في ظل مركز كهذا ضمانة لاستمرار الحوار، ضمانة لكي نؤسس لحوار نساهم فيه بإنتاج معنى لحياتنا وعالمنا .